ملف العدد:

التعلم عبر المشروع:
الدور بين التأجيل أو التقرير أو الاختلاف

مالك الريماوي

من منطلق أن من له مشروع له مستقبل، جربنا أن نربط بين التعليم في صيغة المشروع وبين المستقبل؛ مستقبل التعليم ومستقبل المستقبل، كيف يمكن للتعليم أن يكون تعليم ابن اللحظة، وفي سبيل خلق جيل من الطلاب يملكون إرادة الفعل والقدرة على تحقيقه.

ولذلك، في ملفنا هذا، ربطنا بين المشروع كصيغة للتعليم، ما يمكّن المعلم من أن يعلّم المواد المنهاجية بطريقة تكاملية وعبر منهاجية، من خلال تأطير تعليمه وحركة طلابه داخل مشروع، ما يمنحه القدرة على تأمّل عمله عبر الممارسة التأملية والتأمل في الممارسة؛ لتحليلها من جهة، ومساءلة فهمه لدوره وأجندته وأولوياته، وإعادة إنتاج وعيه المهني والذاتي في ضوء جدلية الفعل والتحليل، وجدلية التأمل والممارسة من جهة أخرى.

وقدمنا أيضاً تصورات حول التعلم عبر المشروع؛ أي انخراط الطلاب في مشروع تعلّمي، مشروع يمكنهم من الشروع في تحمل مسؤولية تعلمهم، والشروع في بناء دورهم في المجتمع، وفي هذا السياق هناك نقاش دائم حول دور الطلاب المستقبلي، وكيف تساهم المدرسة في إعدادهم لهذا الدور، وهناك تصورات عدة سأطرح منها ثلاثة على عجالة، وسنفرد لها مساحة أكبر في ملفاتنا القادمة، وهذه التصورات تتراوح بين التأجيل، أو التقرير، أو الاختلاف.

فبعض الممارسات التعليمية تستند إلى رؤية تقوم على أن دور المدرسة هو الإعداد المعرفي والنظري للطلاب كي يكون لهم دور في المستقبل، وهذا الطرح يتضمن العديد من المغالطات، حيث أن الأشياء لا يتم تعلمها إلا عبر ممارستها، وبذلك فإن تأجيل دور الطلاب الفعلي في الفعل، وفي الحياة، وفي المجتمع، يعني في شكله ومضمونه حرمانهم من هذا الدور الآن، وفي المستقبل. إضافة إلى ذلك، فإن من لا يؤسس ويبدأ الآن ويبني تاريخه وسيرورته وتراكماته، تنعدم فرصته

في الآن وفي المستقبل. كما أن المشكلات التي يتضمنها هذا التوجه هو فصله المعرفة عن الممارسة، مع أنهما في وحدة عضوية، حيث لا يمكننا أن نتعلم دون أن ننخرط، ولا معنى لما نتعلم إذا لم يكن في سياق الدور والفعل.

أما التوجه الثاني، فهو توجه ينهض على أن دور المدرسة تخيل مستقبل الطلاب وأن تعدهم لهذا المستقبل، وبالتالي هناك دعوات دوماً لبناء الطلاب لأدوار سياسية محددة، أو بناء الطلاب كي يناسبوا وضعية السوق، وهذه توجهات منبنية على توجهات أيديولوجية أو متطلبات اقتصادية عابرة، فالمستقبل متحرك متغير، والحاضر في نمو مستمر، ولا يحق لأحد أن يحدد مستقبل الآخرين ويفرض عليهم القوالب التي يجب أن ينمو داخلها، ولا أن يحدد لهم شكل عيشهم القادم.

أما التوجه الثالث، فهو توجه يرى أن على المدرسة أن تمكّن الطلاب من دورهم المستقبلي، عبر صيغة مزدوجة: صيغة تنهض على أن انخراطهم في دورهم المستقبلي يبدأ من انخراطهم الآن في الحاضر؛ انخراط ضمن صيغ وتوجهات مرنة وغير مقررة سلفاً، وهذا يحقق للطلاب التمكن والتكون ضمن أفق إبداعي، ويخلق فرصاً لمستقبل مختلف، فبما أن التغير الاجتماعي الحقيقي هو أن لا نعمل الأفعال نفسها التي نفعلها دوماً، أو أن نفعل الأفعال نفسها لكن بأساليب وطرائق وأدوات جديدة، من هنا يبدأ التغير المجتمعي، ومن البداية نفسها التي يمكنها أن تكوّن الطلاب كطلاب فاعلين ومبدعين، من الربط الخلاق بين المعرفة والممارسة، وبين الانخراط والمعنى، وبين لحظة الحاضر والمستقبل القادم، حيث الطلاب ينخرطون في اللحظة، وينقذفون فيها وبها ومنها إلى ما بعدها، إلى اللحظة التي تليها في المعرفة والفهم والمهارة، وهذا هو التكون، وهو تعلم فك ارتباطات قديمة، وتشكيل ارتباطات جديدة، وهذا هو المستقبل الذي يتكون على شكل أفعال اجتماعية جديدة، ويظهر في الصيغ الجديدة في الممارسة والحوار واللغة وبنى المعنى.

والتوجه الأخير هو ما يحكم رؤيتنا في التعلم عبر المشروع، حيث نخطط مع المعلمين لكي يخلقوا أهدافهم التعلمية بطريقة:

» عبر منهاجية تكاملية أولاً.
» ثم يتم بناؤها على شكل قدرات وكفايات مركبة من "مهارات معبأة في استخدامات، ومعارف مؤطرة ضمن سياقات عيش، ووضعيات عمل وإنتاج".
» مراعية وضع الصف كجماعة إنسانية مكونة من كينونات متفردة، مساهمة في تطوير دينامية الصف وتفاعليته، مراعية دور الفرد وخصوصيته.
» وأخيراً منبنية على شكل فهم قيمي للتعليم، بوصفه فرصة وسياقاً لامتحان قيم العيش واختيار الأفضل منها.

أهداف يتبناها الطلاب لكي تقود مشروعهم عبر تعبئتها في صيغ إنتاج (إنتاج فيلم، أو معرض، أو مسرحية، أو مجلة، أو نشرة، أو متحف، أو مخطط، أو حديقة مدرسية...)، أهداف يؤمن بها الطلاب وتشكل بالنسبة لهم مآل المشروع ومنتظراته، فيخلقون مسارات متعددة للوصول، مسارات مبنية من خلال سلاسل من المهام والعمل، وثمة أهداف أخرى تبقى في «كُم المعلم»، أهداف لا يراها الطلاب، ولكن المعلم يزود بها مشروعه عبر إدارته للمشروع، وأطلق عليها أهدافاً تدير المشروع، لتمييزها عن أهداف الطلاب التي تقود المشروع.

عبر هذا المسار، تتشابك الأهداف مع النتائج النهائية مع المهام ضمن عمليات النشاط الممنهجة، ما يفضي إلى تعلم طلابي حقيقي، لأنه يناسب الطلاب ويتحداه دوماً، ويحقق لهم مجموعة من الخصائص التي تمكنهم من الفاعلية والدور والفهم معاً، حيث ضمن هذه الصيغة، هم يتعلمون ويعرفون أنهم يتعلمون، ويتعلمون ليس عن معرفتهم فحسب، بل عن طرق امتلاكهم للمعرفة؛ أي يملكون تعلمهم أولاً ويطورون طرق تعلمهم، ما يعني أن هذا النوع من التعليم يمكن الطلاب من المعرفة وما رواءها؛ أي طرق الحصول عليها، والمهارة وما أمامها؛ أي استخداماتها الحقيقية، وبالتالي فهو تعلم متعدد الأبعاد.

هذا بخصوص الطلاب، ولكنه أيضاً هو مشروع للمعلم، فالمعلم ليس شخصاً يدير المشروع أو يقوده فحسب، بل هو شخص في مشروع، في مشروع الطلاب كمعلم، وفي مشروعه المهني والشخص كمتكون، فالمعلم عبر المشروع هو منتج لوضعيات وتحديات جديدة لذاته ومهنته، وهو دائم البحث والتأمل فيما يفعل وما يجب أن يفعل، هو في رحلة مضاعفة يعلم ويتعلم كيف يعلم، ما يجعله في مشروع من التكون الدائم والتأمل في ممارساته وأدواره وأجندته، معلم يقود تعلم طلبته ويتقاسم معهم متعة التعلم والتكون،

يمنحهم معرفته وقوته، ويتسلح بقوتهم ومنتوجاتهم ليقاوم عاداته السابقة، ويفكك نظامه الرمزي السابق، ويعيد بناء خطاطات عمله ودوره ومهنته.

إن المعلم في انخراطه في هذا الشكل من التعلم، يضع الكثير من ممارساته وقناعاته وخطاطاته السابقة على محكّات العمل والانخراط، ويعيد النظر فيها بناء على المنجزات التي يحققها هو وطلابه؛ تلك المنجزات والتحولات ومسار تحققها، الذي يقوم المعلم يومياً بكتابتها وسردها والتأمل فيها، وتطعيمها بالمشاعر الوجدانية له ولطلابه، عبر تضمين الانطباعات الوجدانية والانفعالية في المشروع، وفي التعليم، وفي الكتابة؛ تلك الكتابة التي ترافق المشروع وتكون جزءاً منه وجزءاً يحكيه ويكتب قصته؛ تلك القصة التي تصبح قصة طلاب يتعلمون، ومعلم يتكون ويتطور، وقصة مشروع تحقق في المدرسة والمجتمع.

هذه هي القصة التي نحاول أن نرويها، قصة معلمين وطلاب يصنعون تعلمهم وتطورهم عبر قصة هي قصة تحولهم وقصة قوتهم، أو هي القصة التي تمنحهم القوة أيضاً، تلك القوة الضرورية؛ ضرورية للطلاب ليتملكوا تعلمهم ومدرستهم وينتزعوا دورهم في المجتمع، وضرورية للمعلم لينتصر ضد العادة، ضد الروتين، ضد النظام الرمزي القديم، يفكك مقولاته وخطاطات عمله، يمتلك إرادته، ويعيد السيطرة على مهنته، وعلى منتجاته، ويعيد بناء دوره ومكانته، وينتج ذلك عبر تفرده أولاً، وعبر الصوت الجديد الذي امتلكه من قصته الخاصة، ومن الواقع الذي أنتجه في محيطه وفي داخله، هذا مقدمة لملف يحوي كتابات معلمين ومعلمات قدموا كل ما يملكون.

2011/11/12 طلاب من مدرسة الفخيد بانتظار بدء الدوام. تضم المدرسة 60 طالباً من القرى المجاورة لمسافر يطا. قبل أن تفتح المدرسة في 2009، لم يكن هناك فرصة للأطفال المتواجدين في المنطقة للتعلم، ما كان يضطرهم للسفر إلى مدينة يطا. (عدسة الفنان: إدواردو سوتيرس خليل)